

مراجعات في الكتب

مراجعات في الكتب

M.H. Bakalla, *Arabic Linguistics: An Introduction and Bibliography*, London: Mansell Publishing Limited, 1983.

- ١ -

ان تطور الدولة الاسلامية في القرون الوسطى الأولى رافقه تطور ثقافي وحضاري بارز ، كان أحد أركانه الأساسية الاشتغال باللغة العربية ، وخاصة بقواعدها . وفي وصفهم للظواهر اللغوية وتحليلها جمع علماء العربية في القرون الوسطى الأولى بين التشخيص الدقيق والابداع الفذ . ويمكن أن نجد ما يشابه هذه الأسس لتصورهم اللغوي في أحدث النظريات الألسنية في القرن الحالي . ومما لا شك فيه أن أهم الدراسات وأبرزها في تلك الفترة هو كتاب سيبويه ، وهو أقدم مصنف وصلنا في النحو العربي ألف في القرن الثامن ، ويحتوي على وصف صوتي و صرفي ونحوي شامل ، ويرتكز الى رؤية ألسنية واضحة المعالم .

إن انحطاط الحضارة الاسلامية الذي بدأ في القرن الثالث عشر انعكس على الدراسات اللغوية ، فالمؤلفات اللغوية في هذه المرحلة أخذت تعتمد أكثر فأكثر على دراسات سابقة ، يغلب عليها الطابع التعليمي . وبالطبع ، فإن هذه المصنفات كانت تخلو من التخيّل والعمق والرؤية الحاذقة التي ميزت كتب النحو في المراحل الأولى .

في القرن التاسع عشر انطلقت دراسة اللغة العربية انطلاقة جديدة ، ولكن الاهتمام في هذه المرحلة اكتسب طابعاً مغايراً تماماً . ففي هذا القرن وفي بداية القرن العشرين ازدهر فقه اللغة (الفيلولوجيا) الكلاسيكي وبضمنه الفيلولوجيا السامية ، فكانت معظم كتب

النحو التي ألفت في هذه الحقبة بمثابة استقراء لنصوص مكتوبة بما في ذلك جمع المعطيات الصوتية والصرفية والنحوية بقدر المستطاع ، ثم تصنيفها وتنظيمها . وقد امتازت بعض هذه الدراسات بالطابع المقارن ، ويمثل كتاب بروكلمان (Brockelmann) في النحو المقارن هذا الاتجاه خير تمثيل ، وإن كان يشمل دراسة اللهجات أيضاً .

في بداية القرن العشرين نشأ بجانب البحث الفيلولوجي علم اللسانيات العامة الحديثة الذي أسسه دي سوسير (De Saussure) ، وقد غيرت تعاليم دي سوسير في أوروبا ودراسات سابير (Sapir) وبلومفيلد (Bloomfield) في الولايات المتحدة اتجاه البحث اللغوي العام وشكلت منعطفاً حاداً في مركز الثقل ، إذ انتقل من النص المكتوب الى اللغة المحكية ، ومن المنهج التوجيهي (prescriptive) الى المنهج الوصفي (descriptive) ، وتحول مركز البحث من المقارنة بين اللغات ودراسة تأريخها الى دراسة لغة أو لهجة بعينها في فترة محددة بدقة . كما أن المنهج البنوي (structuralist) أصبح أحد العناصر الأساسية في نظرية اللسانيات الحديثة في القرن الحالي .

ومنذ دي سوسير وحتى أيامنا هذه ظهرت في الولايات المتحدة وأوروبا مدارس ومذاهب لسانية شتى ، من إيهما المذهب التوليدي - التحويلي (Generative Transforma - tional Theory) الذي أرسى قواعده تشومسكي (Chomsky) . إلا أن تأثير هذه النظريات الألسنية الحديثة على البحث اللغوي في العربية لم يبدأ إلا في الثلاثين الى الأربعين عاماً الأخيرة . وقد مهدت هذه التأثيرات لظهور اللسانيات العربية الحديثة .

ولكن ما هي «اللسانيات العربية» ؟ من المفروض أن التعبير يشير الى ذلك العلم الذي يركز على معالجة مسائل لغوية في اللغة العربية على اختلاف أنواعها بأدوات يوفرها لنا علم اللسانيات العامة الحديثة . إلا أن هذه بالطبع لسانيات عربية بالمعنى الضيق للكلمة ، لا تشمل جميع مجالات الاهتمام المشار إليها أعلاه والتي شغلت وما زالت تشغل أولئك الذين يعنون بدراسة اللغة العربية .

- ٢ -

في الكتاب الذي نحن بصدده ، اللسانيات العربية : مقدمة وبليوغرافية ، يستعمل مؤلفه باكلاً مصطلح «اللسانيات العربية» بمعناه الأوسع ، وهذا بلا شك ، من حسنات هذا الكتاب . ففصول المقدمة التي اشترك في تأليفها عدة باحثين والبليوغرافية الغنية والمثيرة التي تليها تعنى باللغة العربية وطرائق دراستها منذ القرون الوسطى الأولى وحتى أيامنا

هذه. والجدير بالإشارة أن القائمة الببليوغرافية تضم حقلاً أوسع من ذلك الذي تبحث فيه فصول المقدمة. فالمتعمّن في هذه المراجع يجد مصنّفات نحوية من نتاج القرون الوسطى، وأبحاثاً حديثة عن هذه المؤلّفات، وأبحاثاً فيلولوجية كتبت في القرنين التاسع عشر والعشرين، بالإضافة، طبعاً، إلى دراسات في اللسانيات العربية الحديثة. أما فصول المقدمة لكتاب باكلا فقد ركزت على النشاطات اللغوية في القرون الوسطى من جهة، وعلى البحث الألسني الحديث للعربية من جهة أخرى، في حين أنها أهملت تقريباً، للأسف، النتاج العظيم الأهمية لكبار الباحثين في الفيلولوجيا العربية من أمثال رايت (Wright)، دي ساسي (De Sacy)، فلايشر (Fleischer)، نولدكه (Nöldeke)، ريكندورف (Reckendorf)، بروكلمان وآخرين. وقد ضم باكلا إلى كتابه فصلين يبحثان في وضع البحث اللغوي العربي في كل من أمريكا وبريطانيا، وهذا أمر يحمد عليه المؤلف. ولكن ألم يكن من المناسب إضافة فصل أو فصلين عن النشاط اللغوي العربي في ألمانيا وفرنسا؟ فلا شك أن ألمانيا، التي كانت في القرن الماضي وبداية القرن الحالي أحد المراكز البارزة في مجال الفيلولوجيا العربية، ما زالت حتى يومنا هذا مركزاً للنشاطات الفيلولوجية والألسنية الحديثة سواء في دراسة اللغة العربية الكلاسيكية أو في مجال اللغة المكتوبة الحديثة أو في دراسة اللهجات العربية المختلفة. وتشهد على ذلك وعلى مدى نشاط الباحثين الألمان والفرنسيين في دراسة اللغة العربية عشرات المراجع في القائمة الببليوغرافية.

في فصول المقدمة لكل من سمعان وباكلا بالذات نجد استعراضاً لتأريخ اللغة العربية وتطور اللسانيات العربية، مع إشارة إلى الخلفية الإسلامية سياسياً وحضارياً. ولكن ثمة أهمية خاصة للحديث عن ماهية علم اللسانيات العربية كموضوع للبحث والمشاكل التي ينطوي عليها بحث من هذا النوع، وهذه القضايا تعالجها فصول المقدمة بشكل أو بآخر. يشير بيتر عبود (ص IX) إلى أن معظم المشتغلين باللسانيات العربية في الولايات المتحدة هم في الأصل علماء اللسانيات العامة وليسوا متخصصين بالدراسات العربية (Arabists). وهو يرى تأثيراً مزدوجاً - سلباً وإيجاباً - للمذاهب الألسنية الحديثة على البحث اللغوي في مجال العربية. فمن جهة يجدر بنا الترحيب بالحياة المدهشة التي أثارها علم اللسانيات العامة في نهضته العظيمة في السنوات الأخيرة، ومن جهة أخرى يرى عبود أن الالتصاق بمذهب ألسني معين يؤدي إلى أن أبحاثاً كثيرة إنما تصدر لتأييد نظرية ما أو فحصها. وهذا يأتي على حساب شق طرق جديدة واقتراح مناهج أخرى للبحث اللغوي. أما بروس انغام (Bruce Ingham) فيذكر (ص XII) أن وضع اللسانيات العربية في بريطانيا يعكس وضع علم اللسانيات في العالم الناطق بالإنجليزية. ويقف بتوسع على مساهمة نظرية هاليداي (Halliday) في دراسة النحو العربي. وتتطرق فصول المقدمة المختلفة إلى الفرق بين المنهج الألسني المحض وبين المنهج

الاستشراقي - الاستعراي في معالجة قضايا اللسانيات العربية (أنظر مثلاً ، عبود ، ص X-IX ؛ بروهاسكا (Prochazka) ، ص XVI - XVII ؛ باكلا ، ص XXXI) . ومع ذلك ، فإنه ليس من الصواب الادعاء أن كل الدراسات في مجال اللسانيات العربية يكتبها إما لغويون غير ضليعين في العلوم الاسلامية ، بعضهم لا يتقن اللغة العربية ، واما متخصصون بالدراسات العربية لا علم لديهم باللسانيات العامة . فالظاهر أنه في الأعوام الأخيرة ازداد الاهتمام باللسانيات العربية بشكل ملحوظ . ففي المجلات الألسنية يمكننا أن نجد العديد من المقالات التي تعالج مسائل شتى في اللسانيات العربية ، وبخاصة في مجال علم اللهجات (dialectology) . كما أنه يمكننا العثور في المجلات الاستشراقية على مقالات تعالج قضايا ألسنية في حقل اللغة العربية المكتوبة والمحكية ، وكذلك في مجال المؤلفات النحوية في القرون الوسطى . إن هذه المقالات تكتب عادة بأقلام متخصصين بالدراسات العربية ذوي اهتمام جم بالألسنية العامة . ويستخدم معظمهم بجدارة الأدوات التي يوفرها لهم علم اللسانيات العامة لأجل تحليل أو وصف ظواهر فونولوجية أو صرفية أو نحوية أو غيرها في اللغة العربية . وهم عادة يقومون بذلك دون الالتصاق بمذهب ألسني معين . وخير مثال على ذلك هو كتاب بيستون (Beeston) حول اللغة العربية الفصحى^٢ .

ونحن نوافق بيتر عبود على أن اللسانيات العربية التي حققت في السنوات الأخيرة عدة انجازات ذات أهمية ما زالت في بداية الطريق . ويبدو لنا أن تأسيس مجلة *Zeitschrift für arabische Linguistik* المخصصة جلها للسانيات العربية قد أثار وسوف يثير نشاطاً بارزاً في هذا الميدان . ويشير باكلا في مقدمته الى اتجاهات البحث المستقبلي في مجالات الصرف والنحو وتأليف المعاجم (lexicography) وعلم الصوتيات ودراسة اللهجات (ص XXXIV-XXXIII) . ولا شك أن معظم المجالات ما زالت تحتاج الى جهد ونشاط كبيرين ، وأن المشتغلين بها سيجدون في كتاب باكلا عوناً كبيراً وفائدة جمّة .

يشاي بيلد